الإحسان وروح العصر

للأستاذ ابراهيم ابراهيم يوسف

الإحسان فى معناه الشائع اليوم بين الناس ، هو صفة خلقية تجمع بين أمرين : طابع ذهنى سليم ، وصدق إحساس نحو من قست عليه الحياة قسوة لم يستطع منها مخرجا .

ولعل هذا الإحساس وذلك التفكير مرجعه جميعا إلى الحياة العائلية ، وما تزكيه فى المرء من عواطف ، وما تجره لتجارب كان بعيدا عنها كل البعد ، لولا انغماسه فى المسئولية العائلية ، وإدراكه لها وحسن تقبله إياها . بل إن مجرد التظاهر بحمل هذه المسئولية ، قد يخلق فيه يوما ، إن قريبا أو بعيدا ، هذا الشعور بالواجب نحو الغير .

وإذا كان الشعور بواجب تحمل المسئولية عن الغير على أشده عند الأبوين نحو طفلهما وهذا مافرضته الطبيعة ، فإن المرء كلما ارتقى نحو الكمال الإنسانى ازداد تقبلا لتحمل مسئوليات عن غيره ممن لاحيلة لهم — وذلك مادعت اليه الأديان كلها . فمن دين إلا وذكر الإحسان أى التكفل برعاية أولئك الذين هم أحوج ما يكونون إلى هذه الرعاية وذلك الإحسان ، وأولهم الوالدان ، وذوو القربى ، ويليهم اليامى الذين لا عائل لهم ، والمساكين الذين لا يملكون قوت يومهم ، وأبناء السبيل الذين لا مأوى لهم ولا عمل إلا أن الإحسان يبقى قاصرا على ما يقوم به الفرد طواعية نزولا على ما تستشفه نفسه من حب الخير ، وما يقضى به العرف الأخلاقى بين الجماعة فى بيئته التى يعيش فيها ، وما يدعوه إليه دينه الذى يؤمن به . والحق أن فكرة الإحسان فى ذاتها ، وكذلك مدى تنفيذها ، كانت تتبع الطور الذى عليه المجتمع ، وتحمل طابعه ، وتنم عن النظرة الاجتماعية والنظرية الاقتصادية العامة المعمول بها فيه . فمثلا جاء على اليونان حين من الدهر كانت توجه فيه كل اهتمامها فى إسداء الاحسان إلى المواطنين من سكان المدن الذين جرفتهم قسوة الحياة ، تحت ظروف اقتصادية غير مواتية إلى التعطل عن العمل والانتاج ، حال أن لا حيلة لهم ولا يد لهم عن مواجهة هذه الظروف . ورغم قلة عدد هؤلاء فى العصور المتقادمة فقد كانت مشكلة مزمنة أخذ المفكرون فى كل عصر يعملون على استنباط حلول لها تتفق وروح ذلك العصر . فكان منها مثلا (١) التصدق على الفقراء علانية يؤديه الأفراد وتؤديه هيئات حكومية على نحو ما تفعل اليوم وزراء الشؤون الاجتماعية فى مصر بالمطاعم الشعبية .

وكذلك (٢) اعانة العائلات والأفراد الذين اخنى عليهم الدهر . و (٣) تمكين أفراد الشعب الذين تسرب إليهم الضعف والوهن ، بسبب الانهيار الاقتصادى أو سوء النظم ، من أن يعودوا الى سابق قدرتهم على العمل والانتاج ، رغبة فى حفظ كيان الدولة سليما معافى بقدر المستطاع . و (٤) اعفاء غير القادرين على دفع الضرائب من ادائها . و (٥) الغاء ديون من لا قدرة له على سدادها . و (٦) استيلاء الدولة على الأراضى المنزوعة والقابلة للزراعة واعادة توزيعها بالقسطاس بين الذين يعملون فى الأرض دون غيرهم . و (٧) استيلاء الدولة على الفائض من الثروة عند غير المزارعين وصرفه فى وجوه توفير اسباب الرزق للمحتاجين . و (٨) اعانة المعوزين غير القادرين بالكساء والغذاء وبعض المال . هذه بعض وجوه الاحسان أداها الاغارقة فى بعض العصور المتقادمة . غير أنهم كذلك جربوا حلولا أخرى منها نفى المعوزين نفيا اداريا وفرضهم الهجرة على غير القادر على الانتاج بدعوى وجوب تناسق الرابطة الاجتماعية بين أبناء البلد الواحد .

وإذا كان هذا قد كان قائما فى اليونان فقد كان لمصر عقلية أخرى تأثرت الى الحد الأبعد بالدين، وارتأت أن الإحسان هو أن توفر للمحتاج ما يعوزه . وليس أدل على ذلك من كلمة وردت ضمن خطاب رفعه ثرى شعر بدنو الأجل الى القضاة الاثنين والأربعين الذين سوف يتولون — فى زعمه — محاكمته فى الآخرة ، هذا بعض نصه :

" ... ... وقد أعطيت خبزا للجائع وماء للعطشان وثيابا للعارى وزورقا لمن ليس له مركب ... " .

أما العرب من أهل شبه الجزيرة ، وأغلبهم بدو رحل ، يجوبون الفيافى طلبا فى زرع ترعى عليهم أنعامهم ، ولا يستقرون فى مكان إلا بقدر ما يتزودون به ، أو يتم لهم فيه بيع أو شراء ، فإن الإحسان كان عندهم لا يعدو شربة ماء أو جرعة لبن و بعض تمر النخل — وهذه ، عند الذين يعرفون حياة الصحراء ، هى أثمن وأغلى ما فى الحياة .

هذه ألوان ثلاث من فهم الشعوب لمعنى الإحسان قبل قيام الثورة الصناعية التى خلقت طبقة من الرأسماليين أصحاب المصانع الذين ظلوا مستمسكين بأن همهم الأكبر هو الحصول على عمال بأجور منخفضة ممن لم تستنفد قواهم فى العمل بعد . وأجمعوا أمرهم على أن يكونوا فى مأمن من تدخل الحكومة فى اقتصادياتهم ، بل وسلكوا كل سبيل كيما تنفض الحكومة يدها من الاحسان الى

الذين هم فى حاجة إليه ليتوفر لهم فى سوق العمل أكبر عدد ممكن من العمال بأزهد أجر . غير أن النزعات الديموقراطية لذلك العصر اتجهت فيما يختص بالفرد، وجهة أخرى فى ميدان الاقتصاد والاجتماع . إذ كانت ترمى إلى جعل سلطة الآباء لا تمتد إلى ما بعد بلوغ الأبناء سن الرشد . ومن ثم نما الاعتقاد بأن للفرد حقوقه كما له كفاءاته التى تؤهله لأن يدير شؤون نفسه ، دون ما حاجة إلى تدخل عائلى أو تدخل الحكومة . عندئذ أحس الناس بوجوب إنشاء هيئات أهلية للاحسان تتولى إعانة المحتاجين . وسرعان ما رأت أن واجبها الأول هو تعهد إزكاء النفوس وتنمية القوى الطبيعة بعد أن اضمحلت بسبب العوز وما تجر إليه الحاجة من استكانة وضعف . وقامت الجمعيات الإصلاحية تشد أزر النقابات فى مطالبتها الحكومة وأصحاب العمل بتحريم تشغيل العامل وقتا إضافيا أكثر من وقت العمل اليومى، حتى لا تنهك قواه وحتى يتيح لغيره فرصة العمل فيكسب قوته عوضا عن أن يبقى دائما أسير الإحسان الذى يقدم إليه وهو عاطل .

كان هذا فيما مضى من الزمان قائما ، وفى مستهل عصر النهضة شائعا ، وإن تناوله أحرار الفكر بالنقد والتجريح . أما اليوم فإننا نعيش فى عصر أصبح الوعى الاجتماعى لدى أهله أقوى من أى وعى آخر . بل هو ألزم من غيره لضمان سعادة الشعوب . وها هم أهل البصيرة من أهل الاجتماع يقرون بأن تقدم الدولة فى مستقبل الأيام رهين باصلاح أحوالها إصلاحا يرتضيه العدل الاجتماعى ، لا عدل المتسيطرين ، على أن يتمشى مع الديموقراطية الشعبية ، لا ديموقراطية الرأسماليين . وإذن فلا عجب أن نرى كل هيئة حكومية وكل منظمة سياسية تضع لها برنامجا اجتماعيا تدعو له وتعمل على تحقيقه ، بل لعل ذلك خيرا كله . ومن الخير أن لا ننسى أن أداء الإحسان على النحو العتيق الذى فصلناه تفصيلا لا يثمر إلا التباعد بين طبقة الفقراء والمعوزين ومن إليهم و بين بقية أفراد الأمة الواحدة .

أما سبل الإحسان التى ينشدها العالم اليوم هى أولا تهيئة المحسن اليه لأن يؤدى عملا لائقا بمقدرته الانتاجية ، جسمانية كانت أو عقلية ، ليرتزق منه ، و إيجاد هذا العمل له فإن كان هناك أى عائق يمنع تحقيق ذلك الوجه الأكمل، فعلى الدولة أن تبادر بذلك بإصلاح ذلك النقص . أما إذا كان العائق قهريا ولا حيلة فيه ، فلتدر عليه الدولة من أموالها ما يكفل له العيش والحياة المحترمة التى تليق بانسان فى مجتمع محترم

وللدولة أن تسلك للحصول على المال اللازم لتحقيق جميع ذلك كل سبيل . ولا حرج فى رأى علماء الاجتماع على أية حكومة فى ذلك . أما اذا ما أهملت هذه الأمور فان النتيجة الحتمية لاهمالها هى القضاء على كل أمل فى اعتزاز الفرد بشخصيته وكرامته وعمله المنتج ، وبالتالى القضاء على نهضة الشعوب وسعادتها .

أما بعده فهذه هى الخطوات الأولى السريعة لعلاج الإحسان ، أما علاجه الحقيق ، وأعنى به القضاء على الأسباب التى أدت إلى عوز المحتاجين فوجب مدهم بالاحسان فهذا يشمل كل ناحية من نواحى الحياة . ولذلك قضت الحكمة أن يكون لكل حكومة ولكل منظمة سياسية برنامج اجتماعى تدعو له وتعمل على تحقيقه . وهكذا نرى أنه لا سبيل الى اصلاح ناحية وترك غيره وإنما يجب أن يشمل الاصلاح النواحى جميعا ليكون لأى إصلاح أثره . ولعلنا نأخذ بهذا المبدأ حين نوقن بأننا سائرون اليوم ، أردنا أو لم نرد ، فى تيار من الوعى الاجتماعى الذى يفرض نفسه فرضا على الناس .

ابراهيم ابراهيم يوسف

ولو لم يكن فى كفه ، غير نفسه يجاد بها . . فليتق الله سائله !

"حبيب بن أوس"